**اللسانيات المقارنة و التاريخية: (تحولات في الدرس اللغوي في ق 19) وملامح الدرس الوصفي في الفكر اللساني:**

عرف القرن التاسع عشر (ق 19) تحولا فكريا نوعيا في مسار البحث اللساني واختلافا منهجيا مغايرا لما سبق خلال القرن الثامن عشر (ق 18) وما قبله بفضل جهود مجموعة من المفكرين (المؤرخين) (راسك – جريم حميولدت – كورنيوس – هرمان باول – ويتني – بووكمان...) الذس أسسوا ومهدوا لفكر جديد بمنهج جديد وهم المنهج التاريخي الذس سعوا لتطبيقه علميا وموضوعيا، مما مكن الدرس اللساني في تلك الحقبة من التخلص من فكرة التأمل الفلسفي والتفسير الميتافيزيقي للظواهر اللغوية والانتقال إلى المنهجية العلمية الموضوعية في دراسة الظواهر اللغوية (التغيرات الصوتية).

ولا يستطيع أحد اليوم أن ينكر فضل هذه المرحلة في التمهيد والتأسيس لعهد جديد في الفكر اللساني الحديث والمعاصر فكثير من الأفكار والأسس المنهجية والمفاهيم اللسانية نجدها قد لمح إليها علماء اللسانيات التاريخية، وسوسير نفسه يعترف بأهمية ما ورثه من آراء وتصورات من التاريخيين، وخاصة من مدرسة ليبزيج (النحاة الجدد) (أخذ عنهم: التصورات – المنهج – الأفكار ...الخ) لتبدأ مرحلة جديدة بعدها في مسار الفكر اللساني (بعد سوسير) وهي مرحلة اللسانيات الوصفية البنيوية التي تعود الأصول الأولى والمنطلقات الفكرية الأولى لتأسيسها إلى الأفكار والتصورات التي لمح أو أشار إليها دي سوسير وقبله ويتني وغيره، بالإضافة إلى دي كورتيناي بودوان الذين جددوا الفكر اللساني الحديث والمعاصر، مما ساهم فيما بعد في ظهور اتجاهات لسانية مختلفة، بآراء جديدة ومنهجيات مغايرة.

\*/ ومن الإشارات أو ملامح الانتقال المنهجي من التاريخية إلى الوصفية ما نجده مثلا عند "فون هميولدت" الذي تحدث عن الجانب الديناميكي للغة معتبرا أن كل لغة كلية متماسكة، كما أدرك مفهوم الشكل في اللغة الذي تأخذ به كثيرا اللسانيات المعاصرة.

بالإضافة إلى تقسيمه للغة إلى بنية وصورة باطنية، وكذا إدراكه للمقدرة اللغوية الإبداعية الكامنة في مخ (دماغ) كل متكلم كما أنه ربط بين المستوى الفكري للغة وأهل هذه اللغة (اللغة تصنع الأمة) والناس لديهم أنظمة تفكير مختلفة لأنهم ينتمون إلى عوالم لغوية مخحتلفة (اللغة اجتماعية: سوسير).

\*/ إضافة إلى هيوملدت" نجد لدى العالم اللغوي الأمريكي "وليام ويتني" إشارات صريحة إلى ضرورة اعتماد المنهج الوصفي وهم المتشبع بأفكار هيوملدت وضيف إليها الحاجة الضرورية لوصف وتحليل اللغة تحليلا نظاميا Systématique، منذ عام 1875.

وقد كان لـ: "سوسير" إحالات في مواقع عديدة إلى أفكار وليام "ويتني" خاصة حين ألح على الطابع العلاماتي الاعتباطي للغة، مما يعني أن اللغة مؤسسة (مؤسسة إجتماعية: سوسير).

كما كان "ويتني" ينظر إلى اللغة على أنها نظام من الأصوات ذو مضمون عقلي واللغة عنده هي "نسق من الألفاظ تحكمه علاقات في كل الاتجاهات".

لكن "ويتني" ظل مترددا بسبب عدم قدرته على فك النزاع بين الموقف التاريخي الذي ورثه (الموقف الوصفي الذي يفضله).

\*/ وتبقى أبرز قفزة نوعية في التفكير المنهجي اللساني تلك التي كانت في الربع الأخير من (ق 19)، حيث تمكن النحاة الجدد المحدثون من وضع الصياغة النظرية المتكاملة للغة وكذا الاهتمام بالبعد الاجتماعي في اللغة وبالنزعة النفسية بالإضافة إلى بداية الاهتمام بالظواهر الملموسة والتأثر بالمذهب الوصفي، مما شكل بداية حقيقية لدراسات لغوية مبنية على الملاحظة العلمية الملموسة.

وه والمناخ الفكري الذي هيأ الوسط لظهور فكر "سوسير" ومبادئه الأساسية للبنيوية خاصة ما يتعلق بالنظرة التفسيرية والبحث عن العلل والأسباب للظواهر الملموسة والوقائع التجريبية، وبذلك أدركوا في وقت مبكر حاجة اللسانيات إلى المنهج الوصفي بعد التاريخي (الطريقة التاريخية ليست الطريقة الوحيدة للتفسير اللساني).

\*/ يقول بول هرمان: "إن الطريقة العلمية الوحيدة لدراسة اللغة هي الطريقة التاريخية، وأن كل دراسة لغوية علمية لا تكون تاريخية في أهدافها وأسلوبها، يمكن تعليلها فقط بتقصير من الباحث، أو بعدم كفاية المصادر التي توفرت له، وأن كل تفسير ما هو إلا تفسير صيرورة أو حدوث، وما إن نتجاوز التحقق الصرف للوقائع الخاصة، وما إن نحاول ان نتناول العلاقات لفهم الظواهر حتى ندخل في الحقل اللساني".

من خلال العبارة الأخيرة من قول هرمان يتبين لنا أن اللسانيات التاريخية طرقت باب اللسانيات الوصفية وبعدها البنيوية.

**النظام بين اللسانيات التاريخية واللسانيات البنوية:**

سبقت الإشارة إلى ملامح المنهج الوصفي في اللسانيات التاريخية التي عرفت أيضا من جهة أخرى التطرق إلى موضوع جوهري في الدرس اللساني الحديث ألا وهو (نظامية اللغة)، غير أن مفاهيم النظام لدى اللسانيات البنيوية في مطلع القرن العشرين (20) تختلف تماما عن مفاهيم النظام عند التاريخانيين، ومن أبرز مظاهر هذا الاختلاف نذكر:

- النظام اللساني عند المؤرخين ليس هدفا في ذاته، كما هو الشأن عند البنيويين (ق20) بل هو وسيلة من أجل تتبع تشكيلة اللغة التاريخية وتطورها.

- الاختلاف في المنهج، حيث اعتمد المؤرخون على دراسة الصورة الخطية في اللغة (أي الكتابة) عكس ما نادى به سوسير (في مطلع القرن 20).

- دراسة اللغة عند المؤرخين تركز على العناصر المعزولة دون النظر إليها على أنها حاملة لوظيفة نحوية (شبكة من العلاقات داخل نظام اللغة) بالإضافة إلى التركيز كل التركيز على البحث عن قوانين التطور الصوتي الذي يشكل موضوع الدرس التاريخي.

- التركيز في اللسانيات التاريخية – من أجل تفسير الظواهر اللغوية (التغيرات الصوتية) – على البحث عن القوى الخارجية بدلا من دراسة الظواهر في ضوء مبدأ الترابط الذاتي للنظام.

**البحث اللساني في مطلع العصر الحديث:**

ظهرت في أوروبا مرحلة جديدة خلال الفترة الممتدة بين نهاية القرن الثامن عشر إلى غاية نهاية القرن التاسع عشر، وقد عرفت بمرحلة التأمل في أصل اللغة، ففي نهاية (ق18) ظهر الاهتمام لأول مرة بدراسة اللغة المنقرضة، ويعد اكتشاف اللغة السنسكريتية منعطفا جديدا في تاريخ الدراسات اللغوية باعتباره حدثا ساهم في بعث روح جديدة في البحث اللغوي، مشكلا بذلك نقطة تحول جذري لغوي مهم، وذلك بعد اكتشاف وليام جونز لأول مرة هذه اللغة، وتعرف الدراسين إلى أهميتها التاريخية كونها تحمل تراثا غنيا لإحدى أقدم الحضارات البشرية وهي الحاضرة الهندية التي سبقت الحضارات الأخرى في أوروبا (خاصة في المجال اللغوي).

وبعد هذا الاكتشاف قارب الدارسون الصلة بينها وبين لغاتهم المحلية، فبدأ الدرس الحقيقي في العصر الحديث حين اتجه إلى مقارنة والمنهج التاريخي وهو ما سمح بظهور اللسانيات المقارنة واللسانيات التاريخية والتي انقسمت أو ظهرت في ثلاثة أطوار أو ثلاثة تيارات:

1- المقارنة من أجل بيان القرابة بين اللغات الهند وأوروبية (السنسكريتية – اللاتينية والإغريقية وغيرها) بعد (1786).

2- الشبه بين اللغة والكائنات الحية.

3- الدراسة التاريخية المقننة (النحو، النحاة الجدد) (تقنين التطور (التغير) وتعليل أحكامه).

**أ/ اللسانيات المقارنة:** تهدف هذه الدراسة إلى مقارنة لغتين أو أكثر على كافة المستويات من أجل اكتشاف الأصول المشتركة وإعادة بناء اللغة الأولى في الأسرة الواحدة وتصنيف جميع اللغات، والتي بدأت منذ (1786) وتسمى بـ: (النحو المقارن).

**ب/ اللسانيات التاريخية:** تدرس اللغة الواحدة خلال تطوراتها عبر المراحل المختلفة لمعرفة تاريخها وأسباب تغيراتها الصوتية والتركيبية والمعجمية والدلالية، بمنهج علمي دقيق بعيدا عن المعيارية والأحكام المسبقة والتفسير البيولوجي والرومانسي.

ومن أبرزعلماء هذه الفترة:هميولدت، جون ليونز، شليغل، جريم.

يقول سوسير عن الفيلولوجيا: "إن اللسان ليس الموضوع الوحيد للفيلولوجيا التي تريد قبل كل شيء أن تحدد النص وتؤوله وتعلق عليه، إن هذه الدراسة تدفع بالفيلولوجيا إلى أن تهتم أيضا بالتاريخ الأدبي وبالأخلاق والعادات والمؤسسات الاجتماعية ...الخ.

وحيثما تكون هناك الفيولوجيا فإنها تستعمل منهجها الخاص بها وهو النقد، وغذا ما عالجت قضايا لسانية، فلكي تقارن بين نصوص تنتمي إلى عصور مختلفة، ولتحدد اللغة الخاصة بكل كاتب أو لمعرفة وشرح الكتابات والهوامش والحواشي المكتوبة في لغة قديمة أو غامضة".(ص 187)

**خصائص المنهج الفيلولوجي بالقياس إلى اللسانيات:**

- موضوع الفيلولوجيا هو النص اللغوي المكتوب.

- موضوع الفيلولوجيا هو اللغة باعتبارها وسيلة إلى غايات أخرى ليست بالضرورة غاية لغوية محضة (دراسة البنيات اللسانية من أجل تحليل مضامينها التاريخية).

- تهتم باللسان المكتوب الذي غالبا ما يكون لسانا ميتا (اللسانيات تهتم بالألسنة الحية).

- تفتقر الفيلولوجيا إلى طابع التقنين والصياغة الشكلية formalisation للقوانين في حين تسعى اللسانيات إلى التقنين والتقصيد الصوري.

- المقاربة الفيلولوجية تهتم بالكلمة (اشتقاقها – أصلها – تطورها) أما اللسانيات فتهتم باللسان كبنية منسقة فيما بينها.